

## Résumé

Pour Vygotsky, l'éducation ne se réduit pas à l'acquisition d'un ensemble d'informations, elle est l'une des sources du développement et se définit elle-même comme le développement artificiel de l'enfant. L'essentiel de l'éducation est donc d'assurer son développement en lui procurant des outils, des techniques intérieures, et des opérations intellectuelles.

A de nombreuses reprises, Vygotsky parle même de l'acquisition (L'apprentissage) de différents types d'activités.

Notre propos portera donc sur deux points : d'une part, les implications pédagogiques de sa théorie de l'ontogenèse mentale; d'autre part, l'analyse de ses idées strictement et explicitement pédagogiques.

## ملخص

لا تقتصر التربية حسب فيكوتسكي على اكتساب مجموعة المعلومات والمعارف فقط، بل هي إحدى مصادر النمو في حد ذاته. وأبعد من ذلك تعرف أيضا على أنها النمو الاصطناعي للطفل.

فالهدف من التربية إذن هو تأمين نمو هذا الأخير من خلال تسخير الأدوات والتقنيات الداخلية والعمليات العقلية. ففي العديد من المرات تحدث فيكوتسكي عن تعلم مختلف أنماط النشاط.

سنركز من خلال هذه المحاولة التحليلية على نقطتين هامتين: من جهة سنحاول تحليل إسهامات فيقوشي البيداغوجية لنظرية النشوء الفردي، ومن جهة أخرى تحليل أفكاره البيداغوجية المحضة.

## مقدمة

يعتبر التيار الاجتماعي البنوي تيارا مكمّلا ومعارضاً في نفس الوقت لأعمال **بياجي Piaget** حول التعلم والنمو، فقد اتخذ هذا التيار من خلال بعض النظريات صيغة مكمّلة للنظرية التكوينية مثل ما حدث مع بعض رواده خاصة مع **ميني Mugny** و **دويس Doise** (1981)، كما اكتسب مع بعض التصورات الأخرى طابعا شبه معارضا لبياجي عن طريق تحويل إشكالية العلاقة بين النمو والتعلم من سياقه المنطقي المعرفي إلى سياق اجتماعي أكثر قربا من الأهداف التربوية المنتظرة، ويتعلّق الأمر هنا، بالأعمال التي اكتشفت مؤخرا للباحث **البيلا روسي فيكتوتسكي L.S. Vygotsky**.

فالبنويون يركّزون على الدور الرئيسي لنشاط الطفل الخاص به في بناء معرفته، فحتى لو تحدّث **بياجي** عن سيرورة التوازن عند الطفل، فلقد أشار في نفس الوقت أنّه لا يمكن أن يتحقّق هذا التوازن بدون وساطة اجتماعية. فهو يتكلّم عن الوساطة الاجتماعية لكنّه لم يُعطيها أهمية كبرى، كونه ركّز جُلّ اهتمامه على الأساس العقلي والمعرفي، وكذلك الخصائص الفيزيائية البسيطة للمحيط.

في حين ركّز رواد التيار الاجتماعي البنوي كثيرا على دور الوساطة الاجتماعية ومدى إسهام التفاعلات الاجتماعية وراثتها في التعلم عند الطفل من خلال مجموعة التجارب التي أُجريت على الأطفال التي يبيّن كيف يكون الفرد مساعد - فاعل في نموّه العقلي. فكيف فسّر إذن **فيكتوتسكي** أطروحته الاجتماعية التي تعتبر نموذجا جديدا في تفسير سيرورة التعلم؟

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

إذا أردنا تحديد خصوصية نظرية فيكوتسكي من خلال مجموعة من الكلمات المفتاحية، لا بدّ من الإشارة إلى الكلمات التالية ( اجتماعية الإنسان **sociabilité** **de l'homme** ، التفاعل الاجتماعي **interaction sociale** ، الإشارة والأداة **Signe et instrument** ، الثقافة **culture** ، الوظيفة العقلية العليا **fonction mentale supérieure** والتاريخ **histoire** ). أمّا إذا ربطنا هذه الكلمات في تعبير موحد نستطيع القول أنّ نظرية فيكوتسكي هي نظرية اجتماعية تاريخية ثقافية لنمو الوظائف العقلية العليا- **une théorie socio-historico-culturelle des fonctions mentales supérieures**.

فبالنسبة لفيكوتسكي الإنسان هو كائن يتميّز بخصوصية اجتماعية مبكّرة وبدائية، وهي نفس الفكرة التي تكلم عنها فالون **wallon.H** ولكن بطريقة أكثر تصنيفاً، حيث اعتبر هذا الأخير أنّ الإنسان اجتماعي بطبيعته. ففي عهد فيكوتسكي مهما كان مبدأ أيّ نظرية فما هو إلّا فرض أوّلي، في حين نستطيع اليوم التأكيد على اعتبار الاجتماعية الأولية كفعل علمي مؤسّس وذلك بهدف تقارب تيارين من البحث:

- من جهة، الأبحاث البيولوجية للنمط كتلك المتعلقة بدور الاجتماعية في نشأة الأنثروبولوجيا، أو تلك المرتبطة بالنمو المورفو- وظيفي للرضيع **Développement morpho fonctionnel**، بحيث أثبتت هذه الدراسات أنّ المناطق الدماغية القائمة على الوظائف الاجتماعية مثل إدراك الوجه والصوت البشري تعرف نضجاً مبكراً وسريعاً.
- ومن جهة أخرى البحوث الإمبريقية حول النمو الاجتماعي في الطفولة الأولى التي أثبتت دور الاجتماعية المبكّرة في علاقات الفرد. (Zazzo, P 99).

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

نستطيع القول أنّ نظرية فيكوتسكي ارتكزت حول الاجتماعية المبكرة للطفل، وأنّه من خلال الوساطة مع الآخرين يستطيع أن يلتزم بنشاطاته، فعلاقاته مع الواقع منذ البداية هي علاقات اجتماعية، إذن فاجتماعية الطفل هي نقطة انطلاق هذه التفاعلات مع محيطه.

وبالنسبة للعوامل الأكثر أهميّة في نمو الطفل خاصة في مرحلة الطفولة الأولى هي تلك التفاعلات الحاصلة مع الأفراد الحاملين للثقافة، وفي هذا النمط من التفاعلات يعود الدور الرئيسي إلى الإشارات ومختلف الأنظمة السيميائية التي لها وظيفة اتصالية ثمّ وظيفة فردية، حيث تبدأ باستعمال وسائل تنظيمية ومراقبة السلوك الفردي، وهذا يعني ببساطة أنّ بعض أصناف العمليات العقلية العليا (كالانتباه الإرادي، الذاكرة المنطقية، الفكر اللفظي والمفاهيمي والانفعالات المعقّدة...) لا يمكن أن تظهر أو تتكوّن خلال سيرورة النمو إلّا بوجود علاقة تركيبيّة للتفاعلات الاجتماعية. ولهذا ارتكزت أعمال فيكوتسكي على العلاقة بين الفكر واللغة التي أقرّ من خلالها أنّ الجانب الوراثي لا يعتبر شرطاً كافياً لنمو الطفل بل يجب أيضاً مساهمة المحيط الاجتماعي تحت شكل ما يعرف بالتعلّم، هذا الأخير ما هو إلّا سيرورة تكوينية تحدث خلال النشاطات المشتركة بين الطفل والراشد، بمعنى آخر التفاعل الاجتماعي. وخلال هذا التفاعل تتحوّل اللغة من وسيلة للاتصال والعلاقات الاجتماعية إلى وسيلة تنظيم نفسي داخلي للفرد (ظهور اللغة الخاصة، اللغة الداخلية والفكر اللفظي).

من جهتنا نستطيع أن نستخلص عدّة نقاط هامّة، أهمّها الحلّ الأصلي لمشكل العلاقة بين النمو والتعلّم، فحتى وإن كان يعتبر كوظيفة محدّدة وراثياً مثلما هو الشأن بالنسبة للغة، فإنّ دور المحيط الاجتماعي في التعلّم يعتبر كمثير للنمو. لأنّ

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

اللغة في سيرورة الاكتساب تصبح كجزء مُدمج في التركيبة النفسية للفرد، بمعنى آخر تطوّر اللغة الداخلية، لكن توجد أيضا الإكتسابات الجديدة ذات الأصل الاجتماعي التي تدخل في تفاعل مع وظائف عقلية أخرى كالفكر مثلا، وفي إطار هذا التفاعل الحاصل بين اللغة والفكر تنشأ وظائف جديدة كالفكر اللفظي.

إنّ تحليل **فيكوتسكي** للعلاقة بين النمو والتعلّم في حالة اكتساب اللغة يؤدّي بنا إلى تحديد أوّل نموذج للنمو: ففي السيرورة الطبيعية للنمو، يظهر التعلّم كوسيلة مقوّة لهذه السيرورة وذلك بمساعدة الثقافة التي توسّع من الإمكانيات الطبيعية للفرد وتعيد بناء وظائفه العقلية، ويؤدّي دور الراشد - كممثل للثقافة - إلى وصف نمط جديد من التفاعل الذي يلعب دورا محدّدا في هذه النظرية.

إذن، عند تحليل هذه النظرة نجد أنّ **فيكوتسكي** قد طوّر أفكاره فيما يخص الإكتسابات الثقافية وركّز تحليله على الإكتسابات الموجهة للتحكّم في السيرورات العقلية وسلوك الفرد باعتبارها تقنيات مختلفة يتوجّه الفرد من خلالها نحو ذاته حتى تتأثّر وظائفه العقلية، كما تظهر كنظام هائل ومثير اصطناعي وخارجي يتحكّم من خلاله الفرد في حالاته الداخلية. فالثقافة تساعد على خلق عدد متطوّر من القدرات الخارجية التي تساعد السيرورات النفسية. فإلى جانب الذاكرة والذكاء الفردي الطبيعي نجد أيضا الذكاء الاصطناعي الخارجي، لأنّ الفرد يخصّص تقنيات نفسية موجودة في ثقافته والتي ستصبح تقنياته الداخلية، بالإضافة إلى أنّ الأداة الثقافية هي متجذّرة وتعبّر عن أداة فردية خاصة.

بالاعتماد على هذه النظرة نجد أنّ اكتساب المفاهيم العلمية الأكثر أهمية تظهر في مرحلة التمدّرس، ومن خلال هذه المفاهيم يستطيع الطفل أن يغيّر من نمط تفكيره، وهنا تلعب التربية دورا أساسيا في التعلّم المنظم والمنسّق، الأمر الذي يؤدّي بنا إلى

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

الحديث عن النموذج الثاني من النمو والمتمثل في النمو الاصطناعي. حيث تعرّف التربية حسب فيكوتسكي كنمو اصطناعي للطفل (Perraudau.M, P 125)، فالتربية لا تقتصر فقط على التأثير في سيرورات النمو، بل تعيد بناء كل وظائف السلوك بطريقة أساسية. وعليه فحسب هذه النظرة تصبح التربية هي النمو في حدّ ذاته، في حين أنّها في النموذج الأوّل ما هي إلّا وسيلة لتعزيز السيورة الطبيعية، وهنا تعتبر كمصدر مستقل نسبيا عن النمو تحدث في إطار التفاعلات الاجتماعية.

### فما هي العلاقة إذن بين التفاعلات الاجتماعية والتعلم؟

إنّ فيكوتسكي كان من أوائل الباحثين الذين أكّدوا على أنّ تفاعل الطفل مع الراشدين يلعب دورا هاما في تشكيل البنية العقلية وتحديد طريقة عملها، فهو يرى أنّ الوظائف العقلية العليا تتشكّل تدريجيا عبر سلسلة من التفاعلات الاجتماعية. فشروط النمو العقلي وآلياته توجد خارج حدود الفرد أي في محيطه الاجتماعي والثقافي، ونمو الطفل يتحقق من خلال مشاركته في مختلف النشاطات الاجتماعية والثقافية. فمن الجانب المنهجي تشكّل هذه النشاطات الوحدة الأساسية في التحليل، حيث يميّز فيكوتسكي بين ثلاث مستويات في النشاط الاجتماعي:

**المستوى الأول:** هو مستوى شكلي يمثل الجانب النسقي النمطي الذي تحكمه بنية دينامية تنمو وتتغيّر، وتكمن وظيفة هذا النسق في توجيه سلوك الطفل، ومن أمثلة ذلك تنظيم الأنشطة الدراسية التي تحدّد نظرة المتعلّم إلى التعلّم والأداء، حيث يشير هذا المستوى إلى الإطار الاجتماعي الثقافي الذي يحدث فيه الفعل الموجه إلى تحقيق هدف معيّن والذي يمثل **المستوى الثاني**، حيث يتميّز فيه الفعل **Action** عن النشاط **Activité**، فالأول قد يتغيّر بينما الثاني يبقى ثابتا نسبيا، لأنّ الفعل هو الوسيلة المستخدمة لتحقيق النشاطات. (Vygotsky, 1934, P 57).

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

**المستوى الثالث:** يتعلّق بإجرائية الأهداف بينما ترتبط الإجراءات بالشروط التي تتحقق من خلالها هذه الأهداف. فالإجراء هو كيفية إنجاز الفعل في ظروف معيّنة، وهو متغيّر تبعاً لتغيّر الظروف التي يسعى الطفل إلى تحقيق أهدافه فيها. إذن فالنشاط هو مفهوم اجتماعي مضمونه اجتماعي ثقافي ويشير في نفس الوقت إلى التفاعلات الاجتماعية، أمّا الوظائف العقلية فهي تنمو من خلال التفاعل الفعلي بين الأفراد. فالفكر والوعي في جزئيهما الأكبر ما هما إلّا نتاج النشاط التفاعلي بين الفرد مع أقربائه (الأولياء، المعلّم والأقران...)، حيث يشكّل هذا الأصل الاجتماعي أساس النظرية الاجتماعية لفيكوتسكي.

ويهدف دراسة الوظائف النفسية العليا سلّم فيكوتسكي بوجود تفاعل بين النمو الطبيعي المرتبط بالنضج العضوي وسيرورة الاكتساب الثقافي أو ما يسمّى بالتعلّم، مع تركيزه على الجانب الثقافي، فقد أكّد أنّه ليس بمقدور الطفل الوصول إلى وسائل النمو النفسي بجميع جوانبه خاصة اللغة (النصوص، الكتابات والمخطّطات...) إلّا في إطار الاتصال مع الراشد وبالتعاون مع الزملاء (Bideau et al, P78)

في حين يسمح التعلّم للطفل بالتحكّم في هذه الوسائل، الأمر الذي يمكنه من تطوير إمكانيات الفعل، كما يفتح المجال أمام دورات جديدة من النمو تعيد تركيب توظيفه العقلي، فحسب فيكوتسكي كلّ وظيفة عليا تظهر مرّتين خلال نمو الطفل:

- تظهر أولاً في شكل نشاط جماعي متصل مع الراشد والجماعة الاجتماعية.

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

● لتظهر فيما بعد خلال النشاط الفردي، وتصبح بذلك أولوية مُستدخلة لفكر الطفل. فاللغة مثلا تظهر أولا في شكل وسيلة للتواصل، ثم تتحوّل فيما بعد إلى لغة داخلية تعبّر عن نمط فكري أساسي للطفل.

لقد أكّد فيكوتسكي أيضا على فكرة رئيسية مفادها أنّ ما يقوم به الطفل في وقت ما بمساعدة الراشدين، يستطيع إنجازه بمفرده في وقت لاحق، فهو بذلك يميّز بين ما يستطيع الطفل القيام به لوحده (النمو الحالي للطفل **Le développement actuel de l'enfant**) وبين ما يقوم به بمساعدة الراشدين أو الأقران (القدرات الكامنة **capacités potentielles**). وبين هذين النمطين تتكوّن منطقة مجاورة للنمو **Zone proximale de développement**، بمعنى آخر المكان أو الفضاء الذي سيتطوّر فيه الفرد، وهذا ما يسمح لنا بفهم الخطوات المستقبلية للطفل وديناميكية نمّوه مع الأخذ بعين الاعتبار ليس فقط النتائج المحصّل عليها، بل أيضا ما يكتسبه الطفل.

فالوساطة الاجتماعية لا تسمح بالتعلّم الحقيقي إلّا إذا وُجّهت في هذه المنطقة. وبهذا يصبح من الضروري فهم المعلّم لسيرورة تكوّن مختلف المعارف الخاصة بكل طفل بالإضافة إلى الكشف عن الشبكة الداخلية الوراثية والأفراد المتمدربين.

ألح فيكوتسكي أيضا على أهمية هذه المنطقة على المستويين النظري والمنهجي، ودعا الباحثين والمربّين إلى استعمال هذا المفهوم في تشخيص مشكلات التربية والتعليم وتقويم الأداء، حيث تكمن أهمية مفهوم المنطقة المجاورة للنمو في ضرورة الأخذ بعين الاعتبار القدرات والمهارات التي تكوّنت ونضّجت، بالإضافة إلى



ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

المهارات التي هي في طور النضج، كما أكد أنّ الأطفال الذين يشكّلون فئة متجانسة من حيث مستوى العمر العقلي تكون قدراتهم على التعلّم متباينة، لذلك تختلف سيرورة التعلّم وإيقاعها من طفل لآخر وذلك حسب مبدأ الفروق الفردية. فالفروق الجوهرية بين الأطفال الذين ينتمون إلى نفس الفئة العمرية والعقلية ترجع إلى متغيّر نطاق المنطقة المحاورة للنمو **ZPD**، وعليه لا يحدث النمو بطريقة تلقائية كما أكد على ذلك **بياجي** ولكنّه يتوقّف إلى حدّ كبير على الفرص المتاحة للطفل للتفاعل مع الآخرين والاستفادة من خبراتهم ودعمهم.

لم يفصل **فيكوتسكي** كذلك بين النمو العقلي والتعلّم المدرسي، فهما يتبادلان التأثير فيما بينهما، فكما مستوى النمو العقلي يحدّد القدرة على التعلّم، فإنّ التعلّم يساعد أيضا على النمو.

نستطيع القول إذن أنّ عملية التعلّم المنفتحة على العالم الخارجي تتحوّل من خلال استبطان الطفل للمهارات التي تبلورت في المحيط الخارجي واستدخالها كعملية من العمليات النمائية الداخلية، فإذا كان **فيكوتسكي** يميّز بين التعلّم والعمليات العقلية فهو أيضا يؤكّد على وحدتهما وعلى إمكانية تحوّل إحدهما إلى الأخرى. فالمهارات المكتسبة من خلال التفاعل الاجتماعي تُدمج في بنية المهارات المكوّنة سابقا وتنشأ عن ذلك بنية عقلية جديدة أكثر تعقيدا، هذه الأخيرة تساعد على اكتساب مهارات أخرى أكثر تطوّرًا.

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

في الأخير وبعد هذه القراءة التحليلية، يمكننا القول أنّ نظرية فيكوتسكي تمنح الأولوية للتعلم الاجتماعي على النمو المعرفي داخل ومن طرف الجماعة وفق العديد من المبادئ:

- ليس هناك من مبرر للحديث عن التعلم إلاّ إذا كان أمراً سابقاً عن النمو وما علينا إلاّ الانتظار حتى يصل الطفل إلى مرحلة ما من مراحل نموه لكي يبلغ الهدف المرجو من النضج المعرفي والسلوكي. كذلك النمو هو مرتبط بالزمن، أما التعلم فهو ناتج عن تنسيقات اجتماعية فعّالة يعيشها الفرد من خلال التفاعل مع الآخرين، وخاصة مع الراشدين، وذلك في إطار وضعيات تواصلية متنوعة. إنّ مثل هذا التصور للتعلم يطرح من الناحية البيداغوجية وجوب الربط بين التصورات الساذجة **Représentations naïves** التي يمتلكها المتعلم والكفاءات المطلوب تحقيقها.
- تمثل المتغيرات الاجتماعية أدوات عامة جوهرية في بناء المعارف والسيرورات الذهنية لدى الطفل، فبقدر ما تكون الوضعيات التعليمية متنوعة ومتعدّدة، بقدر ما تطرح أمام المتعلم خيارات متنوعة لامتلاك مكتسبات جديدة لتعديل أو تصحيح المكتسبات السابقة.
- تعتبر الوساطة السيميائية **médiation sémiotique** أساسية بالنسبة لما يسمّيه فيكوتسكي بالمنطقة المجاورة للنمو، لأنّ أغلب العمليات التربوية تحدث في وضعيات اجتماعية تشكّل فيها اللغة بمختلف مظاهرها الوظيفية الوسيطة الأساسية، ومن ثمّ فإنّ اللغة وظيفة تنظيمية، فمن جهة، تمكّننا من إعطاء مدلول ما على وضعية تعليمية معيّنة، ومن جهة أخرى، تسمح للمتعلّم

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكوتسكي \_\_\_\_\_ د. لمياء جنادي

باستخدام تفكيره في سبيل بلوغ أهدافه، بمعنى آخر، يلعب التبادل التواصلي المستند على اللغة دوراً فعالاً في إنجاز التعلّيمات المتوقعة.

- عملية بناء أدوات التفكير المفاهيمي بالنسبة للفرد تمثل أدوات أساسية لتشكيل ما يسمّى بالخطط الفكرية الرئيسية التي تمكّن الطفل لاحقاً من حلّ المشكلات والتعامل مع الوضعيات المتعدّدة والمختلفة. أمّا التعلّم فهو العملية الرئيسية التي تمكّن الفرد من نقل العمليات والسيرورات الاجتماعية من المستوى الشكلي إلى المستوى الذهني، أي نقل السيرورات من إطارها ما بين الأفراد إلى إطار داخلي مرتبط بالفرد المتعلّم، حيث تتحول إلى أطر عامة للتفكير وللنشاط الذهني.

ماهية التعلم في بناء شخصية الطفل: قراءة في إسهامات النظرية البيداغوجية الاجتماعية لفيكونسكي د. لمياء جنادي

### قائمة المراجع

- 1- Bellat.D. 2003, Les **inégalités sociales à l'école : des analyses sociologiques aux interrogations politiques**, PUF, Paris.
- 2- Bideaud. H et Perdinnelli. 1993, **L'homme en développement**, PUF, Paris.
- 3- Felouzis .G. 1997, **L'efficacité des enseignants**, PUF, Paris.
- 4- Perraudeau.M. 1996, **Les méthodes cognitives : apprendre à l'école**, Armand Colin, Paris.
- 5- Piaget .J. 1975, **L'équilibration des structures cognitives**, PUF, Paris.
- 6- Talbot.L. 2009, **L'évaluation formative; comment évaluer pour remédier aux difficultés d'apprentissage**, Armand colin, paris.
- 7- Vygotsky.L.S. 1934, **Pensée et langage**; traduction française par Sève.F. 1985, Ed. sociales, Paris.
- 8- Zazzo.R. 1986, **La première année de la vie**, PUF, Paris.